قصص من التاريخ

٩

# كلمة حق

الدكتور

محمد حسن الحمصي

دار الرشيد

دمشق - ص.ب ٢٤١٣

سلسلة قصص من التاريخ
٩

# كلمة حق

دار الرشيد
طباعة - نشر - توزيع
دمشق - ص.ب ٢٤١٣

# الإهـداء

إلى كل مصلح للمجتمع . . يسعى مخلصاً وراء الإصلاح

إلى كل غيور على وطنه وأمته . . يريد لها أسمىٰ المراتب

إلى كل إنسان حر . . يريد أن يحقق معاني إنسانيته

أهدي كتابي هذا

المؤلـف

# المقدّمة

بسم الله الرحمٰن الرحيم. والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين.

وبعـــد .

فإن في تاريخ أمتنا بطولات رائعة، تدعو الجميع إلى أن يقفوا وقفة إكبار وتقدير لأولئك الأبطال العظام، الذين أعطوا الحق وجودهم وحياتهم وجميع ما لديهم من إمكانات، فاستحقوا بذلك أن يكونوا نبراساً يحتذى بهم، ومثلاً أعلى يرفرف في كل خيال . .

ولعمري . . لو أن أمة من الأمم الحية أوتيت عشر معشار ما أوتيت أمتنا من أبطال صمدوا في سبيل الحق وإعلاء كلمة الحق . . لخلدت ذكراهم . . ولنفخت في أعمالهم تجسيداً وتضخيماً . . حتى تملأ بهم أسماع بني الدنيا . . وأنظار من في الكون . .

وأما أبطالنا . . فإنه ليس لهم من نصيب . . إلا أن يرين غبار النسيان والإهمال على صفحات بطولاتهم الفذة!!

وهل نريد بطولة . . أو هل يتخيل ذهن إنسان بطولة أعظم من

بطولة ذاك الشيخ الخياط، الذي أعجزته سبل إعلاء كلمة الحق، فلم يجد إلا أن يصيح بالأذان قبل موعد الآذان.. فلم يألُ جهداً حتى نصره الله، وأعلى كلمة الحق فوق كل متنفذ طاغ!!

أم إننا نريد بطولة أعظم من بطولة «عبد الله بن حذافة السهمي».. ذاك الصحابي الجليل.. الذي صاغ معاني البطولة الحقيقية أمام الأعداء.. فاستحق بذاك وساماً فريداً من نوعه.. استحق أن يقوم «الخليفة عمر بن الخطاب» ليقبل رأسه ويدعو جميع من في المسجد من الصحابة الكرام ليقبلوا رأسه أيضاً.. إكباراً لمعاني البطولة الفذة، وتقديراً للصمود والإباء..

إننا لا نريد أن نخلد سير أبطالنا بالكلام والطنطنة الجوفاء..

بل إننا نتمنى أن تنغرس بطولاتهم في نفوسنا.. فنتجه جميعاً نحو محاكاة تلك البطولات.. ونترك محاكاة المدنية الأوروبية في أسوأ صورها، تلك الأمور التي يشكو منها العقلاء في أوروبا وفي كل مكان..

وقديماً قيل: التاريخ يعيد نفســه..

وحبذا لو أن التاريخ، تاريخ أمتنا المجيد، يعيد نفسه بصورته الرائعة، وحقيقته المجيدة..

غير أن هذا لا يكون بالأماني.. ولن يكون بالاعتزاز الأجوف..

بل إنه يتطلب من الجميع أن يسعوا. . كلٌ بمقدار وسعه.
ليصلوا إلى الهدف المنشود. .
وما ذلك على الله بعزيز.

**دمشق / ٢٤ / ربيع الأول / ١٤٠١ هـ**
**الموافق لـ ٢٩ / كانون الثاني / ١٩٨١ م**

**محمد حسن الحمصي**

# كلمة حق[1]

عندما مالت الشمس تبحث عن مرقد لها في الأفق، في أصيل يوم صائف، كان تاجر بغداد المعروف «أبو يوسف البزاز» يسير في الطريق الموصلة إلى سوق الثلاثاء بصحبة أحد وجهاء بغداد المعروفين، بعد أن خرجا من المسجد الكبير القريب من المدرسة النظامية العجيبة في الجانب الشرقي من بغداد. .

وفي دروب سوق الثلاثاء العظيم كان «أبو يوسف» وصديقه يسيران بخطى حثيثة، إلى أن دلفا إلى منزل فخم لقائد تركي كبير من قواد الخليفة «المعتضد بالله». .

وطرق «أبو يوسف» الباب. . ووقف بإزاء الوجيه البغدادي المعروف. . وهو يرى أنه لن يُطْرَدَ هذه المرة عن الباب كما كان يُطرد كلما أتى لمطالبة ذاك القائد التركي بوفاء الدين الذي له عليه. .

وخرج غلام من الدار وسأل الطارقين عن مبتغاهم. . فطلبا

(١) عن كتاب «نشوار المحاضر وأخبار المذاكرة».

منه أن يعلم سيده بأنهما على الباب. .

ووقف «أبو يوسف البزاز» إلى جانب صديقه منفوخ الصدر، يرتقب الإذن لهما بالدخول، ليجلسا في صدر البيت، مكرّمين معزّزين. . وتصور أنه قد أخذ حقه كاملاً مشفوعاً بالاعتذار!!.

ودخل الغلام ليخبر سيده بالرجلين على الباب.

وسرعان ما خرج التركي من منزله مغضَباً. . وفتح الباب بنفسه. .

والتفت إلى «أبي يوسف» يقول له:

ـ ماذا تريد يا ابن الفاعلة التاركة؟؟ في كل يوم تأتي وتزعجني وتأتيني بشخص معك؟؟.

والتفت إلى الوجيه البغدادي يقول:

ـ وماذا تريد أنت يا قليل العقل يا (شرّابة) الخرج؟؟ وماذا تراك فاعلاً إن أنا لم أدفع له حقه؟ وهل هناك من يستطيع أن يلزمني بذلك؟.

وتراجع الرجلان خطوات ضئيلة إلى الوراء. . ولم يجرؤ أحد منهما على أن يجابه التركي بكلمة!!

وانفجر القائد التركي يصيح:

ـ هيا انصرفا أيها الأحمقان. . ليس لكما عندي حق!!

ومع صياحه هذا انطلق السوط يصفع وجهي الرجلين. .

فيوليان الأدبار. . فيتابعهما السوط من الخلف يلسع ظهريهما. .

وعاد الرجلان أدراجهما. . كل منهما يقصد منزله. . وهو يحمل بين جوانحه الكثير الكثير من الأسى والحزن على ما آلت إليه الأمور في بغداد. . تلك الأمور التي إن استمرت دون معالجة ستكون نذير شؤم بهلاك الأمة ودمارها. .

غير أن غلاء المال في نفس صاحبه تدفعه إلى المغامرة والمخاطرة بالنفس. . وقديماً قيل: (المال يعادل الروح). . وأي مال هو؟؟ إنه مال كثير استحق «لأبي يوسف البزاز» على القائد التركي، حتى إن مجموع ما له من دين يكاد يعادل معظم ما يملك من ثروة!!

وعلى الرغم من أن «أبا يوسف» أخذ درساً قاسياً في الحياة، فإنه لم يكن من السهل أن يتخلى عن محاولاته لاستعادة ماله. . غير أنه بدأ الآن يسلك درباً آخر. .

استعان ببعض أصدقائه. . ووصل إلى وزير «المعتضد» «عبد الله بن سليمان» وتظلم إليه. . وطالب أن يستعيد حقه، أو نصف حقه، أو أي مبلغ يراه ذاك التركي. . وتكلم الوزير في الأمر فلم تفلح جهوده بشيء!!

وراح «أبو يوسف» يفكر في الأمر. . ماذا يفعل؟ إن معظم ثروته بين يدي ذاك القائد الفاجر، وهو يرفض أن يؤدي إليه حقه!!.

ونظر في الأمر ملياً . . إنه لم يترك باباً إلا طرقه . . ولم يبق لديه إلا باب الخليفة «المعتضد» نفسه يتظلم إليه . . ولكن أنىٰ له أن يصل إلى «المعتضد»؟!

وبينما هو يسبح في بحر من الهموم، إذ طرقه صديق قديم . . وما إن رأىٰ الصديقُ آثار الهموم والأحزان مرتسمة على محيا صديقه حتى بادر يستفسر عن السبب . .

ولم يكن «أبو يوسف» على استعداد لأن يشرح لصديقه أسباب حزنه . . فهو ما فتىء يذكر قصته لكل إنسان يراه . . وشرح قصته مراراً وتكراراً حتى ملها ومل ذكراها . .

غير أن إلحاح الصديق ومكانته في نفسه جعلاه يفضي إليه ما بنفسه، ويسرد له القصة من أولها إلى آخرها!! .

وما كان من الصديق إلا أن قال:

ـ قم معي يا «أبا يوسف» . . قم معي الساعةَ . .

ـ إلى أين؟؟

ـ لآخذ لك حقك . .

ـ وهل مثلك يستطيع أن يستخلص لي حقي بعد أن عجز الكبراء والوزراء والقواد عن ذلك؟!

ـ أجل . . لك علي عهد أن آخذ لك حقك، من غير أن تحتاج إلى خليفة أو سواه . .

وزجر الصديق صديقه عن الإفراط في اليأس. . وطلب إليه أن يقوم ليذهب معه على الفور. .

ولعبت حلاوة المال في رأس «أبي يوسف البزاز» لعبتها. . وقام يتبع صديقه، ولو كان دون ذلك الضرب بالسياط. . بل لو كان دون ذلك الموت الزؤام!!

وسار «أبو يوسف» وراء صديقه، في أزقة الجانب الشرقي من بغداد، فلم يجد نفسه إلا في وسط سوق الثلاثاء الكبير!!

وطار صواب «أبي يوسف» عندما رأى صاحبه وقد صار قريباً من منزل ذاك القائد التركي. . وحسب للمصائب التي ستقع على رأسيهما مئة ألف حساب!! غير أنه ما لبث أن رأى صديقه ينحرف جانباً إلى سوق الخياطين. . فاطمأن فؤاده وهدأ روعه وحمد الله على السلامة. .

وتوقف الرجل في أول السوق، عند دكان خياط فيها. . وفي داخل الدكان، كان هناك شيخ نحيل الجسم، أشيب اللحية، قد خالط بياض لحيته سوادها حتى غلب عليه، وقد جلس على كرسي له يخيط ثوباً قد وضعه في حجره. .

دخل الرجل إلى دكان الخياط. . وسلم عليه سلاماً حاراً. . وعرفه على صديقه «أبي يوسف البزاز» وأخبره بقصته مع القائد التركي، وأكد له أنه لم تنفع مع ذاك التركي وساطة ولا تظلم، وهو

يماطل تارة وينكر أخرى. . وسأله أن يعمل على استخلاص حق هذا المظلوم. .

وكان الجواب:

ــ حباً وكرامة. .

وحبس الشيخ نفسه. . وصمت لحظة جذب خلالها الانتباه. . ثم راح يقول:

ــ صدق رسول الله ﷺ:

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(لا قُدّسَتْ أمة لا يعطىٰ الضعيفُ فيها حقه غيرَ متعتع).

والتفت الشيخ الخياط إلى «أبي يوسف البزاز» طالباً منه أن يتبعه إلى دار ذاك التركي، وكانت قريبة. .

وسار «أبو يوسف» إلى جانب الشيخ الخياط خطوات. . ثم ما لبث أن تأخر عنه قليلاً قليلاً حتىٰ صار بمحاذاة صديقه. . فنظر إليه شزراً وراح يلومه على هذه الورطة التي أوقعه وأوقع نفسه وصديقه الشيخ فيها. . وقال له:

ــ ألم أذكر لك سوء أخلاق هذا التركي، وتجرؤه على ذوي المكانة والجاه؟؟

ولما لم يجد جواباً تابع يقول:

ـ ألم نكن في غنى عن صفعة تصيبنا وتصيب هذا الشيخ المسكين الذي غررتَ به؟!

وكان الجواب مختصراً مفيداً:

ـ امشِ أنت واسكت!!

ووصل الجميع إلى باب القائد التركي..

ووقف «أبو يوسف» بعيداً عن الباب.. مستعداً للفرار قبل أن يناله سوط ذاك الظالم الفاجر!!

وطرق الشيخ الباب.. وأحس «أبو يوسف» أن الطرقات لا تقرع باب الدار، بل إنما هي تقرع باب فؤاده!!

وفُتح الباب.. واستعد «أبو يوسف» للفرار..

ولما رأى الغلمان الشيخ الخياط على الباب.. أسرعوا إليه.. وأُسقط بيد «أبي يوسف» وقال في نفسه:

ـ أما كنا في غنى عن هذا؟؟ حتى الغلمان صاروا يتجرؤون علينا ويهجمون على الشيخ المسكين الذي غرّر به صديقي هذا!!

غير أن الغلمان الذين أسرعوا نحو الشيخ أسرعوا لِيُكبوا على يده فيقبلوها!!

وبهت «أبو يوسف» ووقف في مكانه حائراً لا يدري ماذا يفعل؟!

ورأى الغلمان يعظمون الشيخ باحترام كبير ويسألون عن غرضه.. معتذرين أن سيدهم قد خرج في بعض شؤونه خارج المنزل.. ويعربون عن رغبتهم في المسارعة إلى قضاء ما يأمر به إن كان الأمر مما يستطيعون.. وأما إذا كان الأمر خارجاً عن طاقتهم، فبالإمكان أن يدخل الدار ويستريح فيها قليلاً ريثما يحضر سيدهم التركي..

وتغير الموقف في نظر «أبي يوسف».. بل انقلب الأمر رأساً على عقب..

وقويت نفسه.. وصارت لديه الجرأة على الصمود ليطالب خصمه التركي بالشيء الذي تجود به نفسه!!

ودخل الشيخ.. ودخل الرجلان خلفه.. ومن حولهم الغلمان يرحبون بهم..

وجلسوا في قاعة كبيرة مزخرفة على مقاعد وثيرة مريحة..

وراح الشيخ يوضح للحاضرين مكارم الأخلاق والتقوى التي يجب على كل مسلم أن يتحلى بها.. وذكر لهم حديث رسول الله ﷺ:

(من حالتْ شفاعتُهُ دونَ حَدٍّ من حدودِ اللهِ فقد ضَادَّ اللهَ[1] في أمره؛ ومن ماتَ وعليه دَيْنٌ فليس ثَمَّ[2] دينارٌ ولا درهمٌ، ولكنها الحسنات والسيئات؛ ومن خاصم في باطلٍ، وهو يعلم، لم يزلْ في سَخَطْ[3] الله حتىٰ ينزع[4]؛ ومن قَالَ في مؤمن ما ليسَ فيه حُبِسَ في رَدْغَةِ الخبال[5] حتىٰ يأتي بالمخرج مما قال).

ثم راح الشيخ يسهب في شرح ما أعده الله عز وجل لمن يأكل أموال الناس بغير حق..

في حين راح «أبو يوسف» يفكر في أمر الترف والبذخ الذي يراه بأم عينيه في منزل هذا القائد التركي الذي يسوّف ويماطل في أداء الحق.. قائلاً في قرارة نفسه أو ليس هذا الذي نراه من نعيم وترف إنما هو من عرق جبيني ومن قوت أولاد أولٰئك الألوف من الناس الذين أكل هذا القائد التركي حقوقهم بسيف الحياء وسيف الخوف، في حين نامت عين الرقيب والمحاسب؟!.

---

(١) ضاد الله: صار لله ضداً.

(٢) ثم: هناك. والمراد: والآخرة.

(٣) سخط الله: غضبه.

(٤) ينزع: يقلع ويبعد عن المعاصي.

(٥) ردغة الخبال: الردغة هي الوصل.

وردغة الخبال: عصارة أهل النار أو عرقها.

وبينما هم كذلك إذ دخل القائد التركي . . وفوجىء بالشيخ في منزله . . فهرول مسرعاً نحو الشيخ . . يرحب به . . ويعظمه ويجله . . ووقف بين يديه مرتبكاً حائراً يفرك يداً بيد . . لا يدري ما الذي أقدم الشيخ إليه . . ولم يكن لعينه أن تترك النظر إلى الشيخ ، لتلتفت إلى اليمين قليلاً ، حتى ترى «أبا يوسف البزاز» فيعرف الأمر على حقيقته . .

وتعجب «أبو يوسف» لهٰذا الذئب الضاري ، كيف ينقلب حملاً وديعاً ، بل بغاثاً ضعيفاً مستضعفاً ؟ ! كيف ينقلب اللئيم المتمرد فيصير كريم النفس مطواعاً ، بل رجلاً مسكيناً يفرك يداً بيد ، ويحتاج إلى من يقدم إليه يد العون ؟ ! .

وازداد عجبه عندما رأى القائد التركي يقسم بالله ألا يخلع ثيابه ولا يجلس قبل أن يأمر الشيخ بأمره لينفذه ! !

وأشار الشيخ بيده إلى «أبي يوسف البزاز» قائلاً :

ــ إن هذا الرجل يرى أنه له حقاً مستحقاً عندك . . وقد تأخرت في سداده . .

وخشي «أبو يوسف» أن ينكر التركي حقه . . ولذلك كان متلهفاً لسماعه وهو يجيب :

ــ أجل . . أجل . . يا سيدي ! ! إنني مستعد لأن أؤديه حقه كاملاً غير منقوص . .

وكاد «أبو يوسف» يطير فرحاً بأن اعترف له التركي بحقه، وأعرب عن استعداده لدفع المبلغ كاملاً، وهو يرضى بنصفه أو أقل من ذلك!!

وفوجىء بالشيخ يقول:

ـ إذن.. قم وأده حقه!!

هكذا كلمة فصل قالها الشيخ، لا حاجة معها إلى تأخير أو تأجيل أو مماطلة!!

واستأذن الرجل لحظة.. ودخل منزله..

وما أسرع أن خرج وبيده كيس ممتلىء، بالدارهم مختوم!! واتجه نحو الشيخ.. ووقف بين يديه ذليلاً متضرعاً يقول:

ـ يا سيدي.. ليس لدي الساعة إلا هذا الكيس، وفيه خمسة آلاف درهم.. فإن تكرمتم بالموافقة على أن يأخذ هذا المال الساعة.. ويؤجلني في سداد الباقي إلى حين أتدبر أمري فأؤديه إليه في أقرب فرصة..

وكاد «أبو يوسف» يسارع إلى الإعراب عن موافقته على قبول هذا العرض المقدم قبل أن يفوته الأوان.. غير أن هيبة الشيخ التي استقرت في نفسه خلال هذه الجلسة منعته من أن يتصرف بأي شيء إلا بإذنه..

وقبل أن يتجه إلى الشيخ بالاستئذان، رأى شفتي الشيخ تتحركان وهو يقول:

ـ لا بد من رهن وأجل.. رهن يقبضه صاحب الحق.. وأجل مضروب يوافق عليه الطرفان.. فإذا انقضى كان حقاً للمرتهن أن يبيع الرهن ويستوفي حقه من الثمن..

وسارع القائد التركي بالجواب قائلاً:

ـ أجل يا سيدي!! إنني بأمرك..

ـ إذن أحضر الرهن المناسب..

ودخل التركي إلى منزله.. ولم يغب إلا قليلاً حتى حضر، وبيديه مراكب من ذهب وفضة.. فوضعها بين يدي الشيخ..

ونظر فيها الشيخ متفحصاً.. ووضع الواحدة منها بعد الأخرى في كفه... محاولاً أن يعرف وزنها..

ثم أطرق قليلاً.. والتفت إلى التركي يقول:

ـ قد قبلنا هذا الرهن.. ولكن ما الأجل الذي تراه مناسباً لقضاء دينك؟.

ـ مدة أقصاها شهر..

ـ قد قبلنا منك عرضك هذا..

هكذا أجاب الشيخ القائد التركي.. ثم التفت إلى «أبي

يوسف» يقول له:

ـ خذ الكيس من الدراهم، واحتفظ بهذه المراكب من الذهب والفضة عندك لمدة شهر.. فإن أتاك بسداد حقك أديته إياها.. وإن انتهى الشهر ولم يؤدك حقك، كنت وكيلاً في بيعها.. تبيعها وتأخذ ما لك من حق مما يتحصل لديك من ثمنها..

ـ وحمل «أبو يوسف» كيس الدراهم ومراكب الذهب والفضة، وسار وراء الشيخ..

وخرج الشيخ ومن معه من الدار.. محفوفاً بالكرامة..

وخرج القائد التركي إلى الباب الخارجي.. يشيعه.. ويكرر اعتذاره عما أحوجه إليه من الحضور إلى عنده..

وسار الشيخ في طريقه إلى الدكان..

وترك «أبو يوسف» صديقه يذهب لشأنه.. وتابع هو وراء الشيخ شارد الذهن.. غارقاً في التفكير.. وهو لا يستطيع أن يعرف لما رأى سبباً!!

ووصل الشيخ إلى محله.. وفتح الدكان.. ودخل.. ودخل وراءه «أبو يوسف البزاز».. الذي وضع ما بيده من دراهم وذهب وفضة على منضدة كانت في منتصف الدكان.. ووقف يحملق

بالشيخ . . والشيخ يستغرب هذا، ولا يرى أن هناك ما يبرر علائم الدهشة المرتسمة على محيا «أبي يوسف»!!

وبعد صمت طويل . . أشار «أبو يوسف» إلى المال المطروح على المنضدة وقال:

ـ إن الله قد رد علي هذا بك . . فأحب أن تأخذ ربعه أو ثلثه أو نصفه بطيب من قلبي . .

وفوجىء الشيخ بهذا العرض المقدم إليه . . واعتبره أمراً مهيناً . . فامتعض امتعاضاً بدا أثره على وجهه وراح يقول:

ـ «يا هذا . . ما أسرع ما كافأتني على فعل الجميل بالقبيح»!!

وأشاح عنه بوجهه قائلاً:

ـ «انصرف بمالك . . بارك الله لك فيه»!!

غير أن «أبا يوسف» تمسك بثياب الشيخ قائلاً:

ـ يا سيدي . . والله إن أمرك ليزيدني حيرة على حيرة . . والله لن أنصرف قبلِ أن تفك عقدة حيرتي وتخبرني بالحقيقة!!

ـ حقيقة ماذا؟؟ تكلم . . ما الذي تبغيه مني؟؟ ها هوذا مالك بين يديك . . خذه وانصرف!!

ـ لم يبق المال شيئاً مهماً بالنسبة إلي . . إن هذا المال

وجميع ما أملك هو بين يديك . . وهو لا يساوي شيئاً أمام معرفة حقيقة أمرك يا سيدي ! !

ــ ماذا تريد على وجه التحديد يا هذا؟؟ .

ــ أريد أن تخبرني عن سبب طاعة هذا القائد التركي لك . . في حين أنه تهاون بأكابر الدولة ووزرائها ! !

ــ لا شأن لك بهذا يا رجل . . لقد «بلغت مرادك . . وأخذت مالك . . فلا تقطعني عن شغلي وما أعيش منه» ! !

غير أن «أبا يوسف» لزم الشيخ ، وأصر عليه بإلحاح شديد . . فلم يجد هذا بداً من أن يسرد عليه قصته من أولها . . فأنشأ يقول :

ــ أنا رجل أؤم الناس . . وأقرئهم القرآن . .وأعظهم في هذا المسجد القريب الذي تراه هناك منذ أربعين سنة . .

ــ أجل ! !

ــ ومعاشي من هذه الخياطة . . لا أعرف غير هذا ! !

ــ أجل . .

ــ وكنت منذ دهر قد صليت المغرب . . وخرجت أريد منزلي في نهاية هذا الزقاق الذي تراه أمامك ! !

ــ نعم ! !

ــ فمررت بقائد من أولئك الأتراك ، كان يسكن في هذه الدار

المهدومة اليوم..

ـ نعم.. إنها غير بعيدة من المسجد كما أرى..

ـ وتصادف في تلك اللحظة، أن مرت من أمام ذاك التركي، امرأة جميلة الوجه..فاتنة القوام.. فتعلق بها وهو سكران.. وأراد أن يدخلها داره..

وأخذت المرأة تصيح وتستغيث.. فلم يجرؤ أحد من المارة على إغاثتها لخوفهم من بطشه..

وتابعت المرأة استغاثها... تستنجد وتستصرخ.. لعلهم يحولون دون انتهاك شرفها وتمزيق عفتها.. فلم يوجد صاحب نخوة يتدخل..

ـ وماذا فعلت أنت يا شيخ؟؟ هل سكتّ مثلهم؟

ـ لقد وقفت أراقب ما يحدث من وراء الناس الذين تجمعوا دون أن يتدخلوا..

وسمعتها تقول في جملة كلامها:

ـ «إن زوجي حلف بالطلاق أن لاأبيت خارج منزلي.. فإن بيّتني هذا أخرب بيتي، مع ما يرتكبه من المعصية، ويلحق بي من العار»!!

ـ وماذا فعلتَ لإنقاذ هذه المسكينة؟؟

ـ فلم أطق على ذلك صبراً.. وتقدمت من التركي.. وكلمته بأسلوب رقيق.. وسألته أن يتركها تذهب إلى شأنها.. فهي امرأة عفيفة..

ـ وماذا كان جوابه؟

ـ ما كان منه إلا أن ضرب رأسي بدبوس في يده. .فشجني.. وركلني برجله.. وأدخل المرأة منزله قهراً..

ـ يا له من كافر فاجر!!

هكذا قال «أبو يوسف» وهو يتلهف لمعرفة ما سيكون، فأصغى إلى محدثه الذي تابع يقول:

ـ ووضعت يدي على رأسي، والدم ينزف من جرحي.. وسارعت إلى البيت..

ـ وماذا كان موقف أولئك المارة؟

ـ لم يجرؤ أحد منهم على أن يتكلم بكلمة.. فالأتراك في زماننا، كما تعلم، أصحاب الصولة والجولة.. ولا يستطيع أحد أن يردعهم عن المنكرات التي يقترفونها..

ـ يا لهم من أوغاد!! ما أشد عذابهم غداً بين يدي الله!!

وبعد أن صمت الرجلان قليلاً.. راح الخياط يتابع حديثه قائلاً:

ـ وفي المنزل. . غسلتُ الدم. . وشددت رأسي بخرقة. . واسترحت قليلاً. .

وعندما حان موعد العشاء. . خرجت إلى المسجد لأصلي. .

وما كدت أنتهي من الصلاة بالناس، حتى قمت أثير عواطفهم، وأدعوهم إلى إزالة هذا المنكر. .

ولئن كان الرجل الواحد لا يستطيع أن يزيل المنكر وحده فإن تعاون الجميع كفيل بإزالة هذا المنكر ورفع هذا العار والشنار عن أهل الحي كله. .

والتهبت مشاعر المصلين غضباً وحنقاً على ذاك التركي المستبيح لحرمات الله. . وقصدنا جميعاً منزله في ثورة عارمة. . وضججنا على بابه. . حتى علا صياحنا أرجاء الحي كله. .

فخرج إلينا ومعه عدد من غلمانه. . يحملون بأيديهم العصي والهراوات. . وهجموا علينا. . وأوسعونا ضرباً مبرحاً. .

وفر الناس من حولي. . حتى بقيت وحدي. .

فالتفّ الزبانية الأتراك جميعاً حولي. . وأخذوا يضربونني بكل ما أوتوا من قوة. . حتى كدت أتلف. .

وارتميت على الأرض. . لا حراك بي. .

وكف عني الغلمان . . في حين راح سيدهم يوسعني شتماً من أقذع أنواع الشتائم . .

ثم دخلوا المنزل . .

تباً لهم ! ! ما أسوأ هذا العصر الذي عم فيه الفساد حتى صار المنكر أمراً مفروغاً منه، وكأنه هو الصواب المستحسن بعينه ! !

هكذا قال «أبو يوسف» وهو ينفس عما جاش في صدره من عواطف لم يستطع لها كبتاً . . ثم أرهف سمعه لمحدثه، وكأن ذلك إشارة منه إليه ليتابع حديثه :

ـ وحملني الجيران . . إلى منزلي . . لا حراك بي . .

وظن أهلي أني مسلم الروح إلى بارئها خلال لحظات ! !

وسارع الأهل والجيران إلى إسعافي بكل ما أوتوا من حيلة . . وأُضجعت على سرير . . ونمت فترة قليلة . . واستيقظت على الآلام والأوجاع نصف الليل . .

ولم أفكر في آلامي المبرّحة . . لأن الفكر مشغول بما هو أهم . . مشغول في أمر هذه المنكرات التي ترتَكب بين ظهرانينا جهاراً علناً، ثم لا نستطيع منعها . . وأي منكرات أشد من استباحة أعراض العفيفات الطاهرات؟ !

وامتنع عني النوم . . وهاجمتني سيول من الأفكار لإنقاذ تلك

المرأة من بين يدي ذلك الوحش الغادر. .

وطرقتني فكرة استولت على جميع مشاعري حتى لم تبق مجالاً لغيرها في الساحة!!

ـ وما هي تلك الفكرة الرائعة؟ أسمعني فإني لا أطيق صبراً؟!

ـ لقد قلت في نفسي. . إن هذا العربيد قد شرب طوال ليلته. . حتى بلغ به السكر غايته. . وأظن أنه لم يبق قادراً على التمييز بين الأوقات. .

ولذلك فإنه لن يدري موعد أذان الصبح. . فإذا أنا أذنت، فإنه لا بد سيخيل إليه أن الفجر قد طلع. . فيسارع إلى إطلاق سراح المرأة. . فتلحق بيتها قبل الفجر. . فتسلم من أحد المكروهين. . ولا يقع عليها الطلاق. . وهذا ما لا نتمكن من فعل ما هو أكثر منه!!

ـ إنها لفكرة رائعة حقاً!! خبرني بالله. . هل نفذتها وأنجيت المرأة؟

ـ لقد تحاملت على نفسي. . ورحت أنسلّ من المنزل إلى المسجد. . وصعدت المنارة. . ورحت أنادي بأعلى صوتي:

**الله أكبر. . الله أكبر.**

**أشهد أن لا إله إلا الله.**

وتابعت بأعلى صوتي إلى أن أنهيت الأذان بالصلاة على النبي ﷺ.

وخلال ذلك كله، كنت أراقب باب منزل القائد التركي، لأطمئن قلبي بخروج المرأة.. غير أنها لم تخرج!!

وبقيتُ على المنارة.. أنتظر خروجها بين لحظة وأخرى..

غير أني لم ألحظ إلا أن الشارع قد امتلأ خيلاً ورجلاً ومشاعل.. وأدركت أن العسكر قد أتوا يبحثون عن أمر ما.. فأرهفت سمعي.. فسمعتهم يقولون:

ــ من هذا الذي أذن الساعة؟ أين هو؟

وسارع «أبو يوسف» ليقول:

ــ مسكين أنت أيها الشيخ!! لم يكفك مصابك من ذاك التركي المتوحش حتى وقعت في مصيبة أكبر؟!

ــ حقاً.. لقد داخلني من الفزع قدر عظيم!! ولم أجد أفضل من أن ألوذ بالصمت والاختفاء تحت جنح الظلام!!

ــ ما الذي يمنعني من أن أخاطبهم.. فلعلي أستطيع أن أستعين بهم على إيقاف هذا المنكر، وإخراج المرأة؟!

ــ وماذا فعلتَ؟

ــ صحت من أعلى المنارة:

أنا الذي أذن. . فماذا تريدون؟

ــ وماذا قالوا لك؟

ــ قالوا لي:

أنزل. . أجب أمير المؤمنين!!

ــ وماذا فعلتَ؟

ــ قلت في نفسي:

قد دنا الفرج. .

ونزلت مسرعاً. . ومضيت معهم. . بل كنت أحث الخطا إلى الخليفة. . لعله يتدخل وينقذ المرأة. .

وما كدت أُدخَل على الخليفة «المعتضد بالله» حتى ارتعدت فرائصي. . وقدرت ما سأواجهه من سورة غضب الخليفة. . بعد أن كنت سبب إزعاجه في منتصف الليل. .

غير أن الخليفة المغضَب، حين رأى ما بي من شج ومظاهر ضرب مبرح. . ولحظ ما انتابني من فزع لدى دخولي عليه، عمل على تسكين روعي حتى هدأتُ. . ثم راح يسألني:

ــ ما حملك على أن تغرّ المسلمين بالأذان في غير وقت الأذان، فيخرج ذو الحاجة إلى حاجته في غير حينها، ويمسك المريد للصوم في وقت أبيح له فيه الإفطار؟؟.

ووقفت لحظة.. لا أدري بماذا أجيب؟ هل أقول الحقيقة فأتعرض لنقمة ذاك التركي، أم أداري الموقف، فلا أرضي ربي؟؟

والتفتّ إلى الخليفة «المعتضد بالله» أقول:

ـ أويؤمّنني أمير المؤمنين لأصدقه الخبر؟

فقال:

ـ أنت آمن على نفسك.. تكلم الحقيقة ولا تخش إلا الله!!

فرحت أقص عليه قصة ذاك الفاجر من أولها.. وأريته آثار الضرب والجراح التي في جسمي ورأسي..

فرأى بأم عينيه ما أثر في نفسه تأثيراً بليغاً.. وثار الدم في عروقه وقال:

ـ أوبلغت به الخسة أن يضربك هذا الضرب المبرح لأنك ذكرته بالحق الذي يجب أن يلتزم به؟

ـ أجل يا سيدي.. ما كان مني غير ذلك!!

ـ سنرى أيها الشيخ..

والتفت الخليفة إلى صاحب شرطته وقال:

ـ يا بدر..

ـ أمر مولاي!!

ـ علي بالغلام والمرأة الساعةَ الساعةَ!!

وانطلق غلمان الأمير «بدر» يحضرون الرجل..

وعُزلتُ في موضع كنت أستطيع منه أن أراقب الأمور كيف تجري..

وسارع «أبو يوسف» يوجز الحوادث الثانوية التي يستطيع المرء معرفتها من تلقاء نفسه وقال:

ـ وبشكل مؤكد، بقي الخليفة ينتظر ذاك التركي المارق وهو على أحرّ من الجمر..

وأجاب الشيخ:

ـ أجل.. وما هي إلا دقائق حتى أُحضر الغلام والمرأة..

فأمر الخليفة بمثولهما بين يديه فوراً.. فمثلا..

وكانت آثار التعدي بادية على ثياب المرأة الممزقة..

وراح الخليفة يسأل المرأة عن الأمر..

فأخبرته بالحقيقة، تماماً كما وقعت..

وما كادت المرأة تنتهي من حديثها، وهي تجهش بالبكاء، حتى كان الغضب قد بلغ بالمعتضد الذروة..

والتفت الخليفة إلى صاحب شرطته يقول:

ـ بادر بها الساعة إلى زوجها مع ثقة.. يدخلها دارها..

ويشرح لزوجها خبرها.. ويأمره عني بالتمسك بها، والإحسان إليها..

وطار الشرطة بالمرأة إلى منزلها..

ـ وماذا فُعل بذاك التركي المارق؟؟

ـ لقد أبقاه الخليفة ماثلاً بين يديه.. ثم استدعاني.. فمثلت إلى جانبه بين يدي المعتضد!!

فرأيت آثار الغضب بادية على وجه الخليفة، وقد بلغت أوجها.. ففزعتُ أن يصيبني سهم من أثر ذلك الغضب!!

وما اطمأننت إلا عندما رأيته يلتفت إلى التركي الآثم يسأله:

ـ كم رزقك؟

ـ كذا وكذا!!

ـ وكم عطاؤك؟

ـ كذا وكَذا!!

ـ وكم وظائفك؟

ـ كذا وكذا!!

وجعل الخليفة يقرره بالنعم التي هي عليه.. واحدة فواحدة.. إلى أن بلغت شيئاً عظيماً يفوق التصور!!

ثم سأله:

ـ كم لك جارية؟

ـ كذا وكذا!!

فهز الخليفة الوقور رأسه وقال:

ـ أما كان لك فيهن، وفي هذه النعمة العريضة، كفاية عن ارتكاب معاصي الله عز وجل، وخرق هيبة السلطان، حتى ولجت في ذلك المنكر، وتجاوزته إلى الوثوب بمن أمرك بالمعروف؟؟

فأسقط في يد القائد التركي.. ولم يحر جواباً!!

والتفت الخليفة إلى غلمانه يقول:

ـ هاتوا جوالق.. ومداقّ الجص.. وقيوداً.. وغُلاًّ

فأُحضر ذلك كله..

ووضعت القيود والأغلال في يديه ورجليه..

وأُدخل الجوالقَ..

وأُمر الفراشون.. فدقوه بمداق الجص.. على مرأى مني ومسمع..

وسمعت صياحه يعلو ويعلو.. ثم انقطع ومات!!

وأُمر بكتلة اللحم التي كانت جسده أن تُغرق في دجلة..

وتقدم «بدر» صاحب الشرطة يصادر متاعه.. ويهدم داره هذه التي ترى أنقاضها قريباً من هنا..

وأكرمني الخليفة. . وطيب خاطري. . وأمر أطباءه بالعناية بجراحي. . فضمدوها خير تضميد. .

وقبل أن أنصرف من عند الخليفة التفت إلي يقول:

ـ يا شيخ. . أي شيء رأيت من أجناس المنكر كبيراً كان أو صغيراً أو أي أمر صغيراً كان أو كبيراً. . فمر به. . وأنكره. . ولو على هٰذا. .

وأشار الخليفة بيده إلى صاحب شرطته الأمير «بدر». . ثم تابع يقول:

ـ فإن جرى عليك شيء. . أو لم يُقبل منك. . فالعلامة بيننا أن تؤذن في مثل هٰذا الوقت. . فإني أسمع صوتك. . فأستدعيك. . وأفعل مثل هٰذا بمن لا يقبل منك، أو بمن يؤذيك.

ـ إذن هٰذا هو السبب الذي جعل ذاك القائد التركي ترتعد فرائصه منك، ويسارع إلى دفع ما عليه من حق كاملاً. .

ـ أجل يا بني. .

لقد انتشر الخبر بين الأولياء والغلمان. .

فما سألت أحداً منهم بعدها، إنصافاً لأمر، أو كفاً عن قَبيح إلا أطاعني كما رأيت. . خوفاً من الخليفة «المعتضد بالله»!!

وما احتجت أن أؤذن إلى الآن، في غير وقت الآذان!!

# عقد اللؤلؤ(١)

كان الرجلُ مسناً، ناء كاهله بالسنين الثمانين التي يحملها فانحنى ظهره لها. . غير أن همته كانت همة الشباب. . ولذلك كنت تراه يتجول في أسواق بغداد، يروح ويجيء، وكأنما هو ابن أربعين!!

إنه رجل غريب عن بغداد. . لا ينوي الإقامة فيها إلا ريثما تتهيأ قافلة الحجاج لذلك العام، لينخرط في غمارها، ويسير في حماها. . فلم يكن من اليسير على الإنسان أن يرحل هٰذه المسافة الطويلة إلا في حماية شديدة!!

وأُعلن عن موعد مسير قافلة الحج. . وسارع الناس يتهيؤون حتى لا تفوتهم القافلة. .

وسارع ذاك الرجل الغريب إلى تهئية أمتعته للسفر. .

وقبل موعد رحيل القافلة بيوم، راح يحزم ما كان قد هيأه من طعام وشراب ولباس وما إلى ذلك. . غير أنه ما كان يدري كيف

(١) عن كتاب «ثمرات الأوراق»، لابن حجة: الحموي، الصفحة ـ ١٤٣ ـ

يحزمها على الرغم من ضآلة حجمها.. فذهنه مشغول بما سواها.. وكيف يرتاح من يجد نفسه مغامراً بجميع ثروته التي جناها خلال السنوات الثمانين من عمره؟ لقد كانت ثروته كلها منحصرة في عقد اللؤلؤ الثمين الذي كان يشده إلى خصره، فكيف يأخذ هذا العقد في طريق خطرة غير مأمونة، يكثر فيها قطاع الطرق؟؟ أو لا يخشى أن يخرج عليهم بعض هؤلاء الجناة، فيأخذوا منه هذه الثروة الخفيفة الحمل، دون أن يستطيع التكلم بكلمة، سوى أن يحمد الله على أن تركوه على قيد الحياة، يتأسف ويتحرق على ما فرطت يداه من حمل هذا العقد الذي يساوي اثني عشر ألف دينار؟.

وماذا ينفعه الندم وقد بلغ به الكبر عتيّاً، وناءت به الهمة عن جلب القوت، ولم تبق لديه القدرة على تعويض ما قد يفوت؟!

إذن لا بد له من أن يجد وسيلة يحفظ بها ثروة العمر من الضياع، بعد أن اتخذ قراره الجازم، بألا يصطحب معه ذاك العقد!!

وراح الشيخ العجوز يفكر في كل الأساليب التي تحفظ عليه ماله هذا..

ولكن دون أن يصل إلى نتيجة تقنعه.. لقد كان يطرح حلولاً ثم لا يلبث أن ينقضها في حوار نفسي طويل:

ـ أحفر حفرة في طرف الخان في الليل، دون أن يراني أحد، وأضع العقد فيه، ثم إذا ما عدت من الحج نزلت في هٰذا الخان نفسه، واسترجعت عقدي من مكانه..

ـ إنها لفكرة لطيفة.. أليس كذلك يا «أبا عبد الله»؟؟

ـ لا والله يا«أبا عبدالله»..ما عهدي بك أن تكون سخيفاً، كما أراك الآن!! وهل يخلو أن يحسّ بك أحد ممن بالخان، فيرقب عملك، ويستخرج كنزك؟!

ـ إذن.. ماذا أفعل؟

ـ وجدتها.. وجدتها.. أضعها عند صاحب الخان.. وأشهد عليه شهوداً..

ـ لا يا «أبا عبد الله»!! وهل تريد أن تقضي على حياتك بيدك.. أو يوجد صاحب عقل يعلن عن تملكه مثل هٰذه الثروة الكبيرة.. فيجعل نفسه هدفاً لأصحاب الأهواء والمطامع؟! وكيف تضع مثل هٰذه الأمانة الضخمة، عند رجل لا تعرفه ولا يعرفك؟!

ـ إذن.. ماذا أفعل؟؟ أين أضع هٰذا العقد؟ لقد صار عبئاً ثقيلاً لا أقوى على التخلص من همومه.. فلا أنا أرتاح إن حملته معي في حجتي هذه.. ولا أنا واجد من آمنه عليه..

ـ إذن. . ماذا أفعل؟؟ إنني لا أعرف أحداً في هٰذا البلد!!

ـ أجل. . أجل!! ليس لي إلا «أبو سعيد العطار». . لقد تعرفت عليه خلال الأيام القليلة الماضية التي أقمت خلالها في بغداد. . وهو رجل طيب المعشر. . حلو الحديث. . يدخل إلى القلب دون استئذان. . ولقد أسرني بلطفه حتى إنني كنت أقضي معظم وقتي أمام دكانه، آنس بحديثه اللطيف، كلما فرغ من البيع. .

ـ لابأس!! ليس لي إلا أن أقصده فوراً، قبل أن يغلق دكانه. . فلقد أذن المغرب. . وشارف الناس على إغلاق متاجرهم. . سأسارع إليه. . يجب علي أولاً أن أخرج العقد من تحت ثيابي. .

وأخرج «أبو عبد الله» لفافة كانت مشدودة على خصره. . وفتحها. . وتأملها بنظرة حزينة وكأنه يودعها. . وأحس أن العقد يريد أن يفضي إليه بحديث. . غير أنه لم يفهم المراد. . بل لم يكن لديه متسع من الوقت ليفهم من الأصم الأبكم حديثه الذي يكاد يفصح عنه من غير حاجة إلى بيان. . غير أن قدره ساقه إلى ما هو كائن. . يدفعه إلى ذلك بسوط العجلة لاستدراك الفرصة قبل أن يفوت الأمر ويغلق صاحب الدكان. . ويرهبه سوط آخر كان يلوح له، ألا وهو سوط الخوف على أغلى شيء في الحياة من

الضياع. . وما درى أنه خوفه هذا على العقد أعماه عن التفكير السديد. . وكما قيل: (حبك الشيء يعمي ويصم)!!

ووصل «أبو عبد الله» إلىٰ «أبي سعيد العطار» سريعاً. .

ـ الحمد لله. . ها قد وصلت إليه قبل أن يغلق دكانه. . هاهوذا يدخل أمتعة محله إلى الداخل، تمهيداً لإغلاق الدكان. . إنه ليس عنده أحد من الزبائن. . فليس هناك من يراني، وأنا أعطيه هٰذه الثروة الطائلة. .

ودخل الدكان. . ودعا صاحبها إلى أن يتبعه إلى الداخل. .

وفي زاوية محجوبة عن أعين المارة الذين ندر مرورهم في الطريق في هٰذا الوقت المتأخر، راح «أبو عبد الله» يقول:

ـ يا «أبا سعيد». . تعلم أني هنا غريب. . وليس لي أحد أعتمد عليه إلا الله وأنت. .

وكاد «أبو سعيد» يفصح عن تنكره لمحدثه خشية أن يكون مقصده طلب شيء من المساعدة أو الدين. . لكنه تمهل قليلاً، وترك لمحدثه أن يتابع حديثه الذي يصر على متابعته بسرعة وهو يقول:

ـ وتعلم أني أريد الحج لهذا العام. . ولا يحسن بي أن آخذ معي من الثروة ما لا أحتاج إليه في الطريق، فأعرّض ثروتي

للضياع في هذه الطريق الخطرة..

وزال التجهم الذي كان على وجه «أبي سعيد».. وانفتحت أساريره.. ودعا صاحبه إلى الجلوس ليستريح..

غير أن «أبا عبد الله» كان يريد أن يفضي بما في نفسه، وينهي ما أتى من أجله بسرعة، قبل أن يعكر صفو خلوته هذه أحد الزبائن أو الأصدقاء.. فتابع يقول وهو واقف:

ـ وإني لا أجد خيراً من أن أضع ثروتي هٰذه لدى أخ مؤتمن أثق فيه.. وليس هنا من هو أفضل منك يا «أبا سعيد»..

ومد «أبو عبد الله» يده.. ودفع صرة العقد إلى «أبي سعيد» قائلاً:

ـ خذ هذا العقد.. وضعه أمانة عندك إلى أن أرجع..

وتناولها «أبو سعيد».. وفتحها.. فدهشه مرآها.. غير أنه تظاهر بعدم رغبته بتحمل مسؤولية هذه الأمانة.. مدعياً أن وجود هذا العقد الثمين يعرضه لأطماع اللصوص، وما قد ينجم عن ذلك من مخاطر..

وطمأنه «أبو عبد الله» إلى أنه لا أحد يدري بوجود مثل هذا العقد لديه، كما أنه لم يره أحد وهو يعطيه شيئاً، فلن يعرف لص بوجود شيء، ثمين لديه.. وراح يرجوه أن يصنع معه معروفاً لن

ينساه طوال حياته . .

واستجابة لهذا الرجاء الحار، قبل «أبو سعيد» متأففاً أن يضع عنده الأمانة . .

وانسلّ «أبو عبد الله» خارجاً من الدكان، يلهج بالثناء والشكر . . وانصرف إلى حجه مطمئن البال!!

* * *

وتجشم «أبو عبد الله» مصاعب السفر الطويل، وتحمل من المشقات ما لا يتحملها سواه، بسبب عدم توافر ناقة صالحة للسفر وغيـر ذلك مما يعين المسافر . .

وكثيراً ما كان يغفو فيحلم بالسعادة تغمره وهو يمسك بالعقد . . ويحس بالبهجة تداعب حنايا أضلاعه، حتى إنه ليتصور أنه ما من إنسان هو أسعد منه . . فلقد أدى فريضة ربه . . وفاز بما يتوقعه هو وجميع إخوانه الحجاج من مغفرة ربهم، حتى عادوا كيوم ولدتهم أمهاتهم . .

ولم يكد «أبو عبد الله» يصير على مسافة يومين من بغداد حتى طار النوم من عينيه شوقاً وتلهفاً . . حتى إنه لم يكن يصدق نفسه أن استطاع أن يتحمل فراق بغداد وأهل بغداد كل هذه الأيام الطويلة . . ولكن ما عليه إلا أن يصبر، فلم يبق إلا القليل . .

وتحامل على نفسه إلى أن انقضى اليومان الطويلان.. ودخل «بغداد» وهو لا يكاد يصدق..

وما كاد يضع أمتعته حتى تصور أن أهل «بغداد» قد قصروا في زيارته فلم يأتوا للسلام عليه، وهو لا يريد من أهل بغداد إلا رجلاً واحداً هو ـ في نظره ـ الدنيا بأسرها.

ومضت ساعة على وصوله، ولم يقدم «أبو سعيد» لزيارته والسلام عليه مهنئاً.. ولم يستطع أن يصبر أكثر من ذلك، فلقد نفد صبره.. ولذلك سارع يرتدي ثيابه ويخرج إلى لقاء صديقه.. ولم ينس أن يحمل معه الهدية الثمينة التي جلبها معه من الأراضي المقدسة خصيصاً «لأبي سعيد العطار»..

وما إن وقع بصره على «أبي سعيد» حتى بادره بالعناق.. غير أن العناق كان حاراً من طرف، فاتراً من الطرف الآخر!!

وهنأه صديقه بسلامة الوصول، وطلب منه الدعاء بالمغفرة، ثم التفت إلى أعماله.. وكان عندما لا يجد طلباً يهيئه لأحد الزبائن يتشاغل ببعض الأعمال في الدكان..

وظن الرجل أن صاحبه إنما هو على مشاغل كثيرة.. لذلك انتظره طويلاً على باب الدكان، لعله يفرغ له ويرحب به الترحيب المناسب..

ولما طال به الانتظار أخبر زميله بأنه يود الانصراف ليستريح

من عناء السفر. . فأذن له دون أية إشارة إلى شيء ما. .

وأشار «أبو عبد الله» إلى الهدية التي جلبها معه. . والتفت إلى «أبي سعيد» يقول له:

ـ هذه هديتك. . إنها بركة من مكة المكرمة. .

فتقبلها الرجل. . وسلم عليه يودعه لينصرف. .

وانصرف «أبو عبد الله». . ومشىٰ خطوات بعيـداً عن الدكان. . غير أن نفسه لم تطاوعه في مغادرة مكانه قبل أن يستلم وديعته ويريح فؤاده. .

وعاد إلى صاحبه، بخطوات ثقيلة. . ووقف أمامه. . وابتلع ريقه. . وتلفت يمنة ويسرة. . ولما لم يجد أحداً حوله. . اقترب منه. . وهمس في أذنه:

ـ لقد أزعجتك كثيراً بوضع الأمانة عندك. . وأنا شاكر لك صنيعك، ولن أنساه أبداً.

وكأنما كان صاحب الدكان لا يعلم شيئاً عن ذلك. . فالتفت إلى محدثه متعجباً وقال:

ـ ماذا تقول يا رجل؟! أي أمانة؟ وما الصنيع الذي لن تنساه؟ لا شك أنك مخطىء!!

واقترب «أبو عبد الله» من صاحبه يحدثه فيما بينه وبينه، وهو

لا يريد أن يكون الصوت أكثر من أن يُسمِع أذن محدثه، فقال:

ـ أونسيت يا أخي؟؟ أنا «أبو عبد الله». . صاحبك الذي أودع عندك الأمانة قبل أن يذهب إلى الحج!!

ـ وأي أمانة تلك التي تتكلم عنها يا رجل؟!

كاد هذا السؤال يصك مسامع أبي عبد الله غير أنه تجلد وانطلق يقول بصوت متهدج:

ـ عقد اللؤلؤ. . الذي كان ملفوفاً بقطعة قماش من الحرير الأحمر!!

وباستغراب الذي لم يسبق له أن علم شيئاً مما يفترى عليه راح يجيب:

ـ أي قماش؟ وأي حرير؟ وأي عقد تدعي؟ لا شك أنك مخطىء أو مجنون يهذي!!

وفوجىء الرجل بالإنكار التام!!

وسرح بخياله يفكر فيما يمكن أن يفعل. .

لا شيء يستطيع فعله. . فليس هناك شهود. . وليس هناك من يصدق أن مثله يمتلك عقداً يساوي اثنى عشر ألفاً من الدنانير. .

ولا أحد يعرفه، في حين أن خصمه يعرفه كل الناس!!

وعاد الرجل بنتيجة واحدة من استعراضه للأمور، هي أنه لا وسيلة له إلا التضرع للرجل ليعترف له بحقه. . ولذلك راح يبكي بين يديه، ويذكره بكل ما كان بينهما من صداقة، ويشرح له كيف أتاه في المساء قبل أن يغلق محله، وكيف دخل إلى الدكان إلى هذا المكان المنزوي، حيث سلمه العقد فيما بينه وبينه، ولم يكن شاهداً على ذلك إلا الله. . فلم يجد إلا الإنكار المستمر!!

ولما لم تنفع معه وسيلة من الوسائل تبرم في وجه صاحب الدكان وأعرب عن سخطه. . فما كان منه إلا أنه انتهر الرجل، وطلب منه الخروج من محله قبل أن يجلب له الشرطة فيسوقوه إلى السجن. . ولما أصر الرجل على حقه، دفعه بكلتا يديه، ورفسه برجله، فإذا هو خارج الدكان. .

ولم يجد «أبو عبد الله» غير الصياح. . واجتمع الناس. . واستمعوا إلى دعواه يؤكدها بيمين يقسمه بعد يمين. . فلم يصدق أحدمنهم ذلك. .وأيقنوا أن الرجل يهذي. . فلم يجدوا أكثر من أن يعربوا عن إشفاقهم على رجل فقير لا يملك شروى نقير، وهو يحلم أن له عقداً من اللؤلؤ قيمته اثنا عشر ألف دينار!!

وتبرم «أبو عبد الله» بهؤلاء الناس الجاهلين. . واستنكر إشفاقهم عليه. . ودعاءهم له بالشفاء. . ولما لم تنفعه عندهم الأيمان، راح يندد بهم ويتهمهم. . ولا يكاد يسمع أحدهم يدعو

له بالشفاء إلا ويتفجر غيظاً وينهال عليه بالسباب!!

وانتهى به الأمر إلى صدام مع بعض السفهاء الفضوليين.. ناله منهم شتائم مقذعة وضرب مبرح!!

ولم يكن حاله في اليوم التالي أفضل من سابقه.. العطار ينكر ويضربه كلما تكلم معه بكلمة.. والناس يغمزون ويلمزون.. حتى إن الصبية صاروا يتبعونه ويصيحون: مجنون مجنون!!

وأشفق عليه واحد من الجوار.. فأدخله إلى دكانه.. وحماه من الصبية.. وطيب خاطره.. وقبل أن يسدي إليه نصيحته بالإقلاع عن هٰذه الأوهام، مدّ يده إلى صندوقه، ووضع شيئاً من النقود في صرة، ودسها في جيب الرجل، قائلاً:

ـ خذ هٰذه واستعن بها على قضاء حوائجك!!

فانتفض الرجل وراح واقفاً يرتجف، وكأنما قد لسعته حية رقطاء.. وأخرج من جيبه صرة النقود.. ورماها في حجر صاحب الدكان.. وراح يقول:

ـ ماذا تقول يا رجل؟! حتى أنت الذي ظننت به الخير يكون ظني به في غير محله!!

واغرورقت عينه بدمعة جهد ليحبسها.. وبنبرات اليائس

أردف يقول:

ـ لقد خلت الدنيا من إنسان يستمع إلى الحق!!

وفوجىء الرجل بهذا القول.. وأدرك أن الأمر على غير ما ظن.. فهدّأ من روع جليسه.. وراح يستمع إلى قصته من أولها إلى آخرها..

وهزّ الرجل رأسه.. وأطرق ملياً يفكر.. ثم قال:

ـ ليس لديك بينات ولا شهود.. وإذا أحيل الأمر إلى يمين العطار، فليس هناك أسهل منه على نفسه.. ولذلك ليس لك يا أخي إلا «عضد الدولة» فإنه صاحب الأمر والنهي وهو صاحب فراسة قد تفيدك في استخلاص حقك، وراح أبو عبدالله ملهوفاً ينشد ضالته ولو كانت فوق الثريا!! وما إن قص قصته على«عضد الدولة»حتى أدرك الرجل بثاقب نظره، صدق الدعوىٰ..

وراح «عضد الدولة» يفكر في الأمر ملياً.. لعله يستطيع أن يصل إلى حيلة يثبت فيها دعوى هذا الرجل الساذج.. إذ ليس هناك شيء من البينات.. والدعوى وحدها لا تثبت حقاً.. لذلك رتب في ذهنه أموراً.. وطلب من الرجل أن يذهب ويتخذ لنفسه مجلساً قريباً من دكان العطار ثلاثة أيام، ثم ينتظر مروره في اليوم الرابع.. وطلب منه ألا يشكو العطار عندما يمر به، وألا يزيد على رد السلام..

وخرج الرجل إلى دكان العطار.. يلازمها من الصباح إلى المساء.. لا يكلمه بشيء..

وانقضت الأيام الثلاثة.. وفي ضحىٰ اليوم الرابع.. ارتجّ السوق.. ووقف الناس على جانبي الطريق، يفسحون لموكب «عضد الدولة».. ووقف الحاج «أبو عبد الله» معهم أمام دكان العطار..

وعندما وصل «عضد الدولة» إلى قبالة دكان العطار توقف، وتوقف معه موكبه العظيم، والتفت إلى الحاج «أبي عبد الله» يقول له:

ـ السلام عليكم.

ورد الحاج عليه السلام قائلاً:

ـ وعليكم السلام.

وانحنى «عضد الدولة» من خلال موكبه العظيم يقول:

ـ «يا أخي.. تقدم العراق ولا تأتينا، ولا تعرض علينا حوائجك»؟!

وحار الحاج «أبو عبد الله» بماذا يجيب.. وبادره «عضد الدولة» بالقول:

ـ على كل حال.. متىٰ انتهيت من قضاء أعمالك في السوق

توجه إلينا . .

وتابع «عضدالدولة» مسيره في الطريق، ومن حوله العسكر، في موكب مهيب . .

غير أن العطار الذي سمع ما سمع من حديث «عضد الدولة» مع الحاجِ«أبي عبدالله»تخيل أن الصلة متينة بين الرجلين. . فأراد أن يستدرك الموقف، قبل أن يفلت زمام الأمر من يده، عندما يزور الحاج «أبو عبد الله» «عضد الدولة». . لذلك سارع إليه يقول:

ـ أو أنت الحاج «أبو عبد الله» حقاً؟!

ـ نعم. . أنا هو والله!!

ـ لماذ لم تقل لي ذلك ـ يا أخي ـ منذ أيام؟؟

ـ لقد قلت. .

وقبل أن يتم الرجل جوابه قاطعه بسؤال آخر:

ـ خبرني. . كأني بك كنت عندي قبل أن تذهب إلى الحج!! وكأنك أودعت عندي شيئاً!! أليس كذلك يا أخي؟؟.

وببساطة الملهوف راح يجيب:

ـ أجل. . لقد أودعت عندك عقداً من اللؤلؤ، ملفوفاً بخرقة حمراء!!

ـ نعم. . نعم. . صحيح. . لقد أودعت عندي شيئاً ملفوفاً

بخرقة.. لا أتذكر ما كان فيها.. ولا أذكر أني فتحتها منذ سافرت!!

ومد الرجل يده إلى لحيته يعبث بها وهو يحاول التذكر ثم قال:

ــ ماذا قلت في تلك الخرقة؟

ــ إن فيها عقداً من اللؤلؤ قيمته اثنا عشر ألف دينار.. سلمتك إياه داخل محلك.. هنا.. وراء هذه الزاوية..

ــ آ.. صحيح.. صحيح.. وأعتقد أني وضعته هنا في هذا الصندوق..

ومد يده إلى جيبه.. وأخرج المفتاح.. وفتح الصندوق.. وأخرج عقد اللؤلؤ.

وكاد يطير صواب الحاج «أبي عبد الله» لدى رؤيته العقد.. فخطفه من يده وصاح يقول:

ــ إنه هو.. إنه هو والله.. هٰذا حقي.. إنه مال حلال.. إنه ثمرة العمر!! وأجابه العطار:

ــ خذه يا أخي فإنه حقك.. وأنا أنتظر قدومك لأعطيك إياه وأتخلص من المسؤولية..

وخرج الحاج «أبو عبد الله» من الدكان مسرعاً.. وهو يكاد

يجن من الفرح.. لا يدري أين يذهب غير أنه تذكر أن «عضد الدولة» طلب إليه أن يعود إليه ليخبره بما يحدث..

وتردد في الذهاب إلى «عضد الدولة».. وما شأنه والذهاب إلى «عضد الدولة» ما دام قد وصل إلى حقه..

وتذكر المثل القائل: (صاحب الحاجة أرعن، ولا يروم إلا قضاءها) فعرف أنه ينبغي عليه أن يتخلى عن هذه الرعونة، ويفكر في الأمر من كل جوانبه..

وقرر الذهاب إلى «عضد الدولة» امتثالاً للأمر!! وهناك شرح «لعضد الدولة» ما حدث بينه وبين العطار.. وكيف رد عليه عقده.. وشكره على معروفه العظيم.. وراح يدعو له الله بأن يكافئه.. ثم استأذن بالانصراف..

وكان عدم الإذن له بالانصراف مفاجأة أدهشته.. ولم يعرف ماذا يراد منه فراح يتساءل:

ـ ماذا فعلت؟ ماذا أذنبت؟ هل تصرفت تصرفاً لا يليق؟

وبقي ساعة يعيش في غمرة من هٰذه التساؤلات التي كان يطرحها على نفسه وهو يجلس وحيداً بانتظار الأوامر!!

وفوجىء بصاحبه العطار وقد ساقه الجند، ليدخلوه على «عضد الدولة».. فحار في الأمر!! ماذا يجري اليوم؟!

وأمر «بأبي سعيد العطار» فمثل بين يدي «عضدالدولة» مكبلاً بالحديد. . وراح «عضد الدولة» يسأله عن حقيقة الأمر. .

فأقر بالحقيقة كما كانت تماماً. .

فالتفت إليه «عضد الدولة» وقد ظهرت على وجهه أمارات الغضب الشديد وقال:

ـ إذن فقد خنت الأمانة. . وأنكرت العقد على صاحبه طمعاً بقيمته؟!

فهز الرجل رأسه المطرق إشعاراً بالاعتراف. .

وأمر به «عضد الدولة». . فأُخذ. . وصلب على باب دكانه. . ودُلّي العقد على عنقه. .

ووقف أمامه رجل ينادي الناس:

هٰذا جزاء الغدار الذي خان الأمانة.

وبقي جسد «أبي سعيد العطار» المصلوب ثلاثة أيام عبرة للغادي والرائح!!

# قبلة في الجبين (١)

إنه لا يكاد يسير بضع خطوات جهة اليمين حتى يعود أدراجه إلى اليسار.. ثم لا يكاد يخطو خطوات محدودة حتى يعود من حيث بدأ، وهكذا دواليك.. إنه يتردد أمام عرشه.. يسير بخطوات سريعة متلاحقة، وهو مطرق الرأس.. شارد الذهن.. قد استبد به القلق حتى بلغ منتهاه..

لكن.. لا شيء يفعله.. إنه بانتظار وزيره، حتى يعرف منه جلية الأمر!!

ودخل الوزير المنتظَر.. وحيا «هرقل» ساجداً بين يديه!!

وقبل أن يتم مراسم تحية ملك الروم.. راح الملك يوجه إليه أسئلة سريعة متلاحقة، ينفّس فيها عما يكنّه من منغصات أقلقت باله، حتى إنه لم يجد في نفسه القدرة على الجلوس والمحافظة على هيبة الملك، فقال:

ــ ما أخبار المعارك مع أولئك الشراذم من العرب؟

ــ أصحيح ما بلغني عن انتصاراتهم الساحقة؟

ــ كيف تنهزم جيوشنا الجرارة، ذات السلاح الوفير،

والعدد الكثير؟

ـ خبرني . . هل ينقص جيشنا السلاح؟ هل ينقصهم المال؟ هل ينقصهم المدد؟ أم إن الخور قد فتّ في عزيمتكم يا أبناء رومية العظيمة حتى صرتم عاراً وشناراً على أمتكم العظيمة؟!

وفرك الوزير كفاً بكف . . وتنحنح يهم بالكلام . . غير أن «القيصر» لم يفسح له المجال ليجيب، بل تابع سيل أسئلته يقول:

ـ ماذا أصابكم؟؟ أيكون عددكم ثلاثمائة وخمسون ألفاً، وهم لا يتجاوزون الخمسة والعشرين ألفاً، ثم تنهزمون أمامهم في بحر ستة أيام لا غير!!

ـ لقد كان هؤلاء العرب لا يجرؤون على أن يجابهوا عبيدنا وأتباعنا . . وإذا هم اليوم يهزمون جيوشنا . . ويغزوننا في عقر دارنا . . ولا نستطيع أن نوقف مدهم الطاغي!!

ـ خبرني . . مالك تسكت ولا تحير جواباً؟؟ هل عجزت عن التفكير يا صاحب الدهاء والحيل؟ أم إن الأمر قد سرك، فلستَ تبالي بما يحدث!!

ووجد الوزير مجالاً ليتحدث . . فشد من عزيمته . . وتكلم بعد تردّد . . فقال:

ـ يا سيدي ومولاي . . إن جزيل نعمتكم علي أكثر من أن أنساها أو أغيب لحظة عن الإخلاص لولي نعمتي وصاحب اليد الطولى في الفضل . . ومنذ أمد طويل وأنا أفكر فيما أغم مولاي،

لعلي أجد الحل المناسب..

وبادر الملك يسأل:

ـ إيه.. وماذا رأيت من حلّ؟؟

وكان الجواب:

رأيت أن ننظر إلى الأمر بعين مجردة.. لنعرف الداء.. ثم نبحث بعد ذلك عن الدواء..

ـ هات ما عندك.. فإن الوقت ليس وقت تنميق الكلام!!

ـ إذا سمح لي سيدي ومولاي، فإنني أقول الحقيقة التي لا مِراء فيها، وهي أننا في مواجهة خصم قوي عنيد، لا قِبَلَ لنا به بأساليب الحرب العادية.. فنحن نواجه العرب.. أصحاب الجرأة والبسالة.. الذين يقذفون أنفسهم في وسط المهالك، غير هيابين ولا وجلين.. لقد علمتهم الصحراء دروساً من البطولات التي لا نفقه شيئاً منها.. لقد سرت البطولة في عروقهم ودمائهم.. فقد ورثوها كابراً عن كابر، حتى صارت شيئاً متأصلاً فيهم!!

فتبرم الملك بهذا الحديث.. وقاطعه قائلاً:

ـ أراك تكيل لهم المديح، وكأنك تُسَرّ بمصاب قومك؟! أوليس فيك نخوة أو غيرة؟!

ـ المعذرة يا سيدي . . لقد قلت لمولاي : إنه يترتب علينا أن نعرف الحقيقة مجردة عن الأهواء . . لأن معرفة الداء نصف المداواة . .

ـ تكلم إذن . . وماذا ترى بعدما ذكرت من هذه الحقيقة المخجلة؟ أريد خلاصة الحديث . .

ـ أما إنه مادام الأمر كما ترون، يا سيدي، من سريان البطولة العربية في عروقهم . . فإنه لا سبيلَ لنا إلا أن نزرع هذه البطولة في أرض أبنائنا . .

ـ ماذا تقول؟ نزرع بطولة أعدائنا في أرض أبنائنا؟ ماذا تعني بهذا الكلام يا رجل؟!

أجل يا سيدي . . نزرع بطولة الأعداء في أرض الأبناء . . نعمل على اصطياد عدد من رؤوس أبطالهم . . فنوقعهم في شرك الأسر . . ثم نعمل على تنصيرهم وتزويجهم من بنات الروم الجميلات . . فيأتي من نسلهم أبطال يكونون نواة كوكبة النصر . .

ـ عظيم جداً . . يا لك من مفكر بارع!!

ـ وستكون هذه الخطة سهلة التنفيذ إذا تذكرنا ما عهد عن العرب من ولع بجمال المرأة وهيام بها . . إنهم على الرغم من بطولاتهم الخارقة سيرتمون بين أحضان غادات الروم الفاتنات، مستسلمين منقادين . .

ـ حقاً. . حقاً! يكفي أن ننتقي واحداً من أولئك الأبطال. . بل إننا نريد أعظم أولئك الأبطال. . لنجعله بين العشرات من الفتيات الفاتنات؛ ليحملن بالأبطال الأفذاذ، الذين يجمعون حكمة الروم وذكاءهم إلى بطولة الأعراب وجرأتهم . .

ـ حقاً يا مولاي. . وبذلك نستطيع أن ننتصر على هؤلاء العرب، ونؤدبهم على تجرئهم على هيبة الملك . .

ـ ولكن من أين لنا أن نصل إلى ما نريد، إلى بطل كبير يصل إلى أيدينا سالماً؟؟

ـ دع الأمر لي، يا سيدي. . فلدينا واحد من أولئك الذين يريدهم جلالة القيصر. . إنه واحد من تلك القلة القليلة التي بقيت في جيوشهم من أصحاب محمد. . لقد وقع في الأسر في كمين نصبه بعض جندنا، وقد أصيب ببعض الجراح، ، غير أنه تماثل للشفاء، وخلال أيام سيستعيد قوته، ويكون جاهزاً للمهمة التي ستنيطونها به. .

ـ مرحىٰ لك. . لن أنسى لك هٰذا التفاني في خدمتنا. .

وينصرف الوزير على أن يعود بعد ثلاثة أيام، ومعه ذاك العربي البطل، وقد دخل في النصرانية، وصار طوع بنان قيصر الروم!!

وذهب الوزير ليلعب لعبته مع أسيره «عبد الله بن حذافة». .

فأمر إحدى فتياته.. لتأتي به.. ذليلاً صاغراً.. وكان جوابها أنه لا يحتاج معها إلى أكثر من جولة واحدة، ليستسلم ويصير رهن الإشارة..

وذهبت الفتاة.. لتغوي الأسير.. فرمت بشباكها.. شباك الفتنة.. الواحدة تلو الأخرى.. فكانت تعود في كل مرة صِفر اليدين..

مضى اليومان الأول والثاني.. والفتاة لا تنال من الأسير أدنى التفاتة..

وحار الوزير الذي كان يترقب بتلهف نتيجة الجولات التي تتالت الواحدة بعد الأخرى.. وضاق ذرعاً بأسيره..

وفي اليوم الثالث.. ألح الوزير على فتاته، أن تبذل قصارى جهدها.. فأعجزهما أمره..

وعاد الوزير إلى مليكه.. صِفر اليدين.. يجر أذيال الخيبة والفشل..

واستطاع أن يستمهل القيصر يومين آخرين، ليأتيه بالأسير على ما يريد من الخضوع والانقياد..

وظن الوزير أنه في خلال هذين اليومين، سيسلط عليه فتاة أخرى، أبرع جمالاً، وأكثر فتنة، وأعظم دهاء.. تستطيع أن تفلح

فيما فشلت فيه أختها. .

ونسي أن السر في الأمر، ليس عجز الفتاة الأولى عن الإغواء، أو تقصيرها في أسباب الفتنة. . بل إنما السر في ذٰلك، هو أن الأسير هو «عبد الله بن حذافة السهمي». . خريج مدرسة المسجد. . مدرسة الإيمان والتقوى. . وأنىٰ لمثل هٰذه أن تفتن قلبه المشغول بالله، المتعلق بما يرضي الله؟!

ولذٰلك لم يكن مستغرباً أن تفشل الفتاة الثانية فشلاً ذريعاً أشد من فشل أختها. . وأن يعود الوزير، ليمثل بين يدي القيصر. . ذليلاً صاغراً. . يعرب عن عجزه عن تنفيذ المهمة التي تكفل بها لسيده. .

وغضب الطاغية. . وأمر بإحضار الأسير بين يديه ليتولىٰ الأمر بنفسه. . وظن أن المال والجاه، سيفعلان فعلهما إذا ما قصر الجنس. .

وأُحضر «عبد الله» بين يدي الطاغية. . واستماله القيصر. . وأدناه منه. . وأغدق عليه من النعم والأموال. . وخلع عليه من اللباس أفخره. . وأخبره أنه سيجعل منه أميراً من أمرائه المقربين إن هو انقاد إلى ما يريد ودخل في النصرانية. .

وتابع قيصر يخبره بأعظم بشارة لديه فقال:

ـ وعند ذلك. . سأزوجك أجمل بنات الروم. . وستكون أقرب

المقربين مني..

وانتظر الطاغية الجواب الإيجابي متلهفاً.. غير أن الأسير لاذ بالصمت.. ووجم في مكانه لا يجيب بشيء..

واستبد الغضب بالملك.. والتفت إلى أسيره يقول:

ـ مالك لا تجيب بشيء؟؟ أولا يعجبك أن تحظىٰ بأجمل بنات الروم، وأن تكون أقرب المقربين مني؟؟

وبعبارات مفعمة بالأسى راح الطاغية يلوح بالتهديد فقال:

ـ فكر في الأمر فإنك أسير بين يدينا.. حياتك رهن بأوامرنا.. ونحن نتكرم عليك، فنمنّ عليك بحياتك.. ونزيدك على ذلك إكراماً وتقريباً منا!! ما رأيك يا هٰذا؟

وكان صمت «عبد الله» تعبيراً عن استهزائه بكل ما يعرض عليه، فهو يشعر بأنه أكبر من ذلك..

وكان إباؤه هٰذا صفعة لقيصر في الصميم..

فاعتلت أمارات الغضب الشديد وجه الطاغية.. غير أنه أحجم عن تنفيذ دواعي الغضب.. وأراد أن يصل إلى مراده قبل أن تفوته الفرصة التي يسعىٰ وراءها.. فراح يعرض على أسيره عرضاً أكثر إغراء.. عرضاً ما كان ليعرضه ملك على إنسان قط.. فالتفت إليه وهو يحاول التقرب من قلبه وقال:

ـ «هل لك أن تنصّر وأشركك في ملكي وسلطاني؟».

فلم يكن من الأسير إلا أن تابع الصمت، بروح من اللامبالاة عنيدة، فاشتد غضب الطاغية، وزمجر قائلاً:

ـ هيه يا رجل.. مالك؟ أعرض عليك أن تكون شريكاً لي في ملكي، ولا أرى منك جواباً؟؟

ورفع «عبد الله» رأسه.. والتفت إلى قيصر يقول:

ـ اسمع مني يا هذا.. إنك والله **« لو أعطيتني ما تملك.. وجميع ما ملكته العرب.. على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين.. ما فعلت»**

واندفع قيصر يصرخ:

ـ **إذن أقتلك!!**

فلم يزد «عبد الله» على أن قال:

ـ «أنت وذاك»!!

وبلغ الغضب بالقيصر أوجه.. فأمر بالأسير أن يصلب..

وسرعان ما حمله الجند.. وعلقوه على خشبة الصلب.. وتهيأ الرماة.. ووضعوا النبال على الأقواس..

وهمس القيصر في أذن وزيره.. وذهب الوزير ليهمس في أذن الرماة..

وراح الطاغية يراقب وجه «عبد الله بن حذافة» . . لعله يلحظ فيه بوادر التراجع عن كبريائه تلك . . غير أنه لم يفرح بشيء من ذلك . . بل إن «عبد الله» كان يزدري ما يلاقي من أمر يخاف منه الناس!!

ولم يجد الملك بداً من أن يغامر بسهمه الأخير . . فأصدر أمره للرماة أن يرموا . . فرموه قريباً من يديه ورجليه . . متحاشين أن يصيبوا شيئاً من جسده . .

كانت النبال تتهاوى . . وكان القيصر إلى جانبه يعرض عليه أن يترك الإسلام ويدخل في النصرانية . . فلا يزداد إلا عناداً على ما كان فيه من عناد . . واعتزازاً بلا إله الله محمد رسول الله، على ما كان عليه من توحيد وحب لرسول الله.

وعيل صبر الطاغية!!وكاد يأمر الرماة بأن يسددوا نبالهم إلى موضع القلب من جسد عبد الله . . غير أنه تمالك نفسه . . وأمر الرماة أن يتوقفوا . . وأمر به فأنزل!!

ثم دعا بقدر كبيرة . . فصُب فيها الماء . . وأُضرمت النار تحتها . . وغلا الماء فيها حتى أصبحت كالمرجل يقذف بالبخار . .

ثم دعا بأسيرين من أسرى المسلمين . .

فأُحضرا . .

وأمر بهما.. فأُلقيا في القدر التي تقذف بالبخار.. الواحد تلو الآخر.. على مرأىٰ من «عبد الله بن حذافة».. وفي كل مرة كان «عبد الله» يرىٰ أخاه المسلم يسقط في القدر وهو يصيح بأعلى صوته: الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله.. ولا يستطيع أن يتم لفظ الشهادة، لأن نفسه يخمد وسط القدر الملتهب..

ثم أمر الطاغية أن يلقى «بعبد الله» في القدر، كما ألقي بزميليه..

و استاقه الحرس الى القدر.. ليقذفوه فيها..

فلما ذُهب به بكىٰ!!

ورأىٰ القيصر عبرته.. فسارع يقول:

ــ ردوه علي..

ثم التفت إلى وزيره قائلًا:

ــ ألا ترىٰ.. لقد رأى الموت عياناً.. فتراجع عن عناده.. ولا بد إلا أنه سيعود إلينا مطأطىء الرأس..

واسترخىٰ الطاغية على كرسي عرشه يقول:

ــ الآن تحقق لي ما أريد..

وأعاد الحرس «عبد الله» بين يدي القيصر..

وابتسم الطاغية ابتسامة المنتصر يقول:

ـ سأكون أحسن منك يا هٰذا. . لن أتراجع عما كنت وعدتك به. . هيا اذهب إلى القسّيس وادخل في النصرانية. . وستكون أقرب المقربين مني. .

والتفت القيصر الى وزيره يقول:

ـ هيا. . خذوه إلى الكنيسة. . ليعمده الرهبان. . ويعلن دخوله في النصرانية. .

وبادر الوزير مسرعاً ليأخذ «عبد الله» من أيدي الحرس. .

غير أن «عبد الله» يبقى في مكانه. . ويأبى أن يتزحزح. .

فيوجه الوزير اللومَ إليه قائلاً:

ـ مالك يا رجل؟! امشِ. . فقد حققت جميع أهدافك. . وأبشرك، منذ الآن، بأنك ستكون صهر الملك. .

وأمسك بيده ليسير معه. .

غير أن «عبد الله» رفض أن يتزحزح من مكانه قيد شعرة. .

ـ ما بك يا «عبد الله»؟!

هكذا قال القيصر متسائلاً. . ثم تابع حديثه يقول:

ـ كأني بك غير منفتح النفس لما أنت مقبل عليه!!

ـ لا والله. . بل إنني لم أكن أكثر سعادة، لتحقق أمر من

الأمور، أكثر من سعادتي فيما أنا مقبل عليه الآن. .

ـ إذن. . هيا سارع إلى الكنيسة. . لتدخل في النصرانية. .

ـ لا. . إنك مخطىء فيما أنا مقبل عليه الآن. .

ـ علام إذن أنت مقبل؟!

ـ إنني مقبل على هٰذه القدر التي تغلي . . فأنا سعيد بأن أكون فيها!!

وبهت القيصر بهذا الموقف العجيب!! وراح يقول:

ـ ماذا تقول؟ كأني بك قد جننت!!

ـ لا. . بل إنني أعي ما أقول حقاً. .

وصمت «عبدالله» لحظة وهو يحملق في السماء. . كأنما يبحث عن شيء فيها. . ثم صاح يقول:

ـ ردوني إلى القدر التي تغلي . . ألحقوني بأخوَي!!

ولم يعرف الطاغية تفسيراً لهذا التناقض الرهيب الذي يراه بأم عينيه. . فراح يسأل عبد الله:

ـ إذن لماذا بكيت عندما أخذك هٰؤلاء الجند إلىٰ القدر؟؟ ألم تندم على تعنتك وما أوقعت نفسك فيه من هلاك؟

وبصوت متهدج، انبجس من خلال الدموع يذرفها. . راح

«عبد الله» يجيب:

ـ لا . . إنني لم أندم قطّ . . بل إنني لم أكن في ساعة أكثر سروراً مني ساعة كنت أساق إلى القدر التي تغلي

ونفد صبر الطاغية . . وظهرت عليه آثار التبرم وهو يقول:

ـ إذن . . لماذا بكيت؟؟

ـ **بكيت؟! بكيت لأنني لا أملك إلا نفساً واحدة!!**

ووسط استغراب الحاضرين، تابع «عبد الله» يوضح المراد فقال:

ـ لقد قلت في نفسي: إنك «تُلقىٰ الساعة في هٰذه القدر . . فتذهب».

فبادر الطاغية يقول:

ـ ألم أقل لك ذٰلك؟ لماذا تُذْهب نفسك . . وتمنع عنها أسباب التمتع بالسعادة؟

ـ **لا . . لقد «كنت أشتهي أن يكون ـ لي ـ بعدد كل شعرة في جسدي نَفْسٌ تُلقىٰ في الله»!!**

وكان الجواب درساً بليغاً، وقف الطاغية أمامه حائراً لا يدري ما يصنع . . لقد رأى أنه أمام صخرة عاتية شماء . . تتحطم عليها أمواج أمانيه وأحلامه . .

ولم يكن من الطاغية إلا أن يطأطىء الرأس.. ويعترف بالهزيمة.. فحنا رأسه.. وخشع ببصره.. وراح يقول:

ــ هل لك أن تقبل مني رجاء؟

ــ هات.. إن كان مناسباً قبلت!!

ــ رجائي أن تبقىٰ عندنا، في ضيافتنا، على دينك.. وتتزوج من تشاء.. وتبقىٰ بيننا محاطاً بالرعاية والعناية والتكريم!!

ــ لم أفهم المراد!! خبروني ماذا تريدون؟؟

ــ الحقيقة.. أننا نريد أن يكون بيننا ـ من نسلك ـ أبطال يحملون صفاتك التي منحتك أياها الصحراء.. أبطال شجعان صناديد مثلك.. أبطال تصنعهم الصحراء فلا يهابون الموت، ولا يفتّ في عزيمتهم أسر!!

ــ ماذا تقول يا هٰذا؟!

هٰكذا قال «عبد الله» مقاطعاً حديث الطاغية، بأنه قد شعر بأنه طُعن في الصميم، لذٰلك لم يجد القدرة على التحمل أكثر من ذٰلك.. ثم تابع يقول:

ــ هل الصحراء آلهة حتى تستطيع أن تمنحنا ما تدعي من صفات ومواهب.. من شجاعة وبطولة.. من استبسال وعدم خشية الموت أو الأسر؟؟

لا . . لا . . إنكم مخطئون إذا ما ظننتم ذٰلك!!

إنني إنسان مثلكم . . ولكنني أختلف عنكم بأن الإسلام قد خامر شغاف قلبي . . ودخل نور الإيمان إلى سويداء قلبي . . فأضاءت لي الدنيا . . وعرفت ما جهلتموه من حقائق . .

لقد عرفت أن هٰذه الحياة التي تتهافتون عليها ليست إلا ظلاً زائلاً . . وإنما هي دار ممر، وليست دار مقر . .

لقد تفتحت عيناي على ما أغمضتم عنه عيون بصيرتكم . . فعرفت أن الحياة لا تنتهي بالموت كما تظنون . . بل إنما هناك حياة أخرى . . فما تظنونه موتاً ليس موتاً في الحقيقة . . بل إنما هو انتقال من هٰذه الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى . . حياة يسعد فيها الأتقياء سعادة لا سعادة بعدها . . و يشقىٰ فيها من لم يعمل لها شقاء ما بعده شقاء!!

وصمت «عبد الله» لحظات تفحص خلالها وجوه الحاضرين، فقرأ فيها علامات التلهف والإعجاب، ثم تابع حديثه يقول:

ــ لذلك . . لا تستغربوا إذا ما رأيتم تلاميذ مدرسة الإسلام يطلبون الموت . . ويصيح أحدهم عندما يواجه الموت كما صاح عمير بن الحُمام عندما أتته ضربة شقت رأسه نصفين: **فزت ورب الكعبة . .**

لا تستغربوا إذا ما رأيتم طلاب مدرسة محمد ﷺ رهباناً في الليل، يُسمع لهم دوي كدوي النحل، يحيون الليل بالصلاة وقراءة القرآن.. فرساناً في النهار.. يركبون رأس الموت، لعله يوصلهم إلى بغيتهم من الفوز والشهادة..

لا تستغربوا.. إذا ما رأيتم الواحد منكم يقف قبل المعركة، يبكي ويودع أهله، ويطلب منهم أن يدعوا له بالعودة سالماً.. في حين ترون الواحد من رواد مسجد النور، يقف قبل المعركة، بين يدي ربه، يصلي ركعتين، ثم يبتهل إلى ربه قائلاً:

**ـ اللهم لا تردني إلى أهلي خائباً.. اللهم ارزقني الشهادة..**

لا تستغربوا ذٰلك.. ولا تستغربوا أكثر من ذٰلك.. فهم كلهم متشبثون بالحياة.. ولكن ليست الحياة الزائلة التي لا تعرفون سواها.. بل هم متشبثون بالحياة الحقيقية التي يرجون أن يصلوا إليها.. متشبثون بما لا يمكن أن يوصف، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.. وهم يرون أنه لا يحول بينهم وبين حياة السعادة العظمىٰ هٰذه إلا وجود قيود الجسد على الروح.. ولذلك فهم يتمنون أن تزول هٰذه القيود، لترفرف الروح حرة طليقة بين يدي باريها..

وتوقف «عبد الله» عن حديثه هٰذا الذي استولى فيه على

مجامع القلوب.. فوجم الجميع صامتين لا ينبسون ببنت شفة.. وذرفوا الدموع غزيرة، حزناً على ما هم عليه، وشعوراً بالعجز أمام ما يرون ويسمعون من عظمة!!

وجفف الطاغية دموعه.. وتحامل على نفسه قائلاً:

ـ إذن.. هٰذا سبب بكائك عندما ذُهب بك إلىٰ القدر التي تغلي

ـ أجل.. لقد بكيت عندما رأيت السعادة العظمىٰ.. وطمعت في أن أصل إلى أكثر من ذلك.. فحزنت على أنني لا أملك إلا نفساً واحدة أبذلها في سبيل الله.. وتمنيت لو أن لي بعدد كل شعرة في جسدي نفساً أبذلها في سبيل الله..

وأدرك «قيصر» الحقيقة.. وعرف أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الإذعان للحقيقة والخضوع لهذا البطل الذي تخرج من مدرسة الإسلام!!

غير أنه أراد أن يسترد لنفسه شيئاً من مظاهر التعالي ولو كان الثمن غالياً.. فهو لا يبالي مهما بذل في سبيل ذلك!! ولذلك التفت الى «عبدالله» يقول:

ـ «هل لك أن تقبل رأسي وأخلي عنك؟»

وكان الجواب:

ـ لماذا أقبل رأسك؟ هل أقبل رأسك خوفاً من الوصول إلى ما أبتغي؟

وبعد فترة صمت وجيزة تابع يقول:

ـ غير أني مستعد لأن أفعل ذلك إذا كان في ذلك إطلاق سراح «جميع أسارى المسلمين»!!

وكان الجواب سريعاً دون تردد:

ـ أجل.. أطلق سراحك.. وأطلق سراح جميع أسارى المسلمين..

وتوقف عبد الله عن تنفيذ ما طلب منه.. وراح يحاور نفسه:

ـ ماذا علي أن أقبل رأس عدو من أعداء الله.. إذا كان في ذلك إطلاق سراح جميع أسارى المسلمين؟! لا بأس علي في ذلك!!

ثم دنا عبد الله من القيصر.. وقبل رأسه..
واستلم جميع أسارى المسلمين..

وسار بهم في طريق المدينة المنورة..
ووصلوا «يثرب» في غلس الظلام، وقت السحر..
وقصدوا المسجد النبوي.. المسجد الذي أسس على التقوى.. المسجد المدرسة التي تربي على الإيمان وتخرج الأبطال الميامين..

وهناك صلوا ركعتين.. شكراً لله على أن متعهم بالعودة إلى رحاب بيت الله.. ليعملوا أكثر مما عملوا.. وليجاهدوا في سبيل الله علاوة على ما جاهدوا.. وليقبلوا على ربهم أكثر مما

أقبلوا.. فقد متعهم الله بحسن العمل وطول العمر..

وأذن الصبح..

وصلى الخليفة «الفاروق عمر بن الخطاب» بالناس صلاة الصبح.. والتفت من صلاته، ليرى «عبد الله بن حذافة السهمي» وإخوانه.. فراح يسألهم عن أمرهم وما جرى لهم..

وجلس «عمر بن الخطاب» والصحابة الكرام يستمعون إلىٰ «عبد الله بن حذافة» يقص عليهم قصته مع الطاغية قيصر الروم..

وما انتهىٰ من سرد ما حدث له.. حتى التفت إليه «عمر» يقول:

ـ تعال إلي يا أخي..

وأقبل «عبد الله»..

وتناول «عمر» رأس «عبد الله» وقبّله من جبهته.. من الموضع الذي قبل فيه «عبد الله» رأس الطاغية.. ثم التفت إلى المسلمين يقول:

ـ **«حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة السهمي»**.

وقام الناس يقبلون رأسه..

ويشكرون المولىٰ على أن متعه الله وإخوانه بطول العمر وحسن العمل..

ـ **هل قرأت للمؤلف سلسلة (قصص من التاريخ)؟**

إنها سلسلة من القصص التاريخي، تعمل على أن تنفض غبار النسيان، عن تاريخنا المجيد، ليكون ذاك التاريخ الناصع، نقطة انطلاق إلى مستقبل مشرق..

١ ـ **الدين الحق**: يعرض فيها المؤلف قصة أحد الدعاة الإسلاميين.. الذين عملوا على رفع لواء الإسلام عالياً خفاقاً، حين انهزمت الجيوش الإسلامية، ودُمرت الخلافة العباسية على أيدي المغول.

٢ ـ **فأين الله** : مجموعة من القصص القصيرة تروي:

* صيحة «عبد الله بن عمر» في جوف الصحراء.

* إسلام «الدكتور كراين» الأمريكي الجنسية.

* إيثار الإمام «الواقدي» وإخوانه.

* الشيخ «عبد القادر».. رجل العلم والتقوىٰ.

٣ ـ **الإيمان.. والزنزانة المتجولة**: قصة «كعب بن مالك» رضي الله تعالى عنه.. وهو يروي لنا الصراع العنيف الذي دار في

نفسه وهو في سجنه الغريب من نوعه. . ذاك السجن الذي أودعه فيه رسول الله ﷺ مدة خمسين عاماً.

٤ ـ **أم . . لا كالأمهات**: تروي لك قصة البطولة الحقيقية في:

* أم . . عملت على إعداد ولدها، فكان أستاذ الإمام «مالك».

* أب . . جاهد خلال ٢٨ عاماً متواصلة لم يعد خلالها إلى أهله.

* ابن . . طلب العلم حتى صار مفتي المدينة المنورة غير منازع.

٥ ـ **صراع بين الفضيلة والرذيلة**: يروي الصراع النفسي العنيف الذي تعرض له بعض المؤمنين، عندما جاءتهم الرذيلة تعرض نفسها عليهم:

* **المسكي**: قصة إنسان كالملائكة، صمد في وجه الحرام، صمود الأبطال العظام!!

* **يحرق أصابعه**: قصة إنسان أحرق أصابعه حتى يردع النفس الأمارة عن الوقوع في الحرام!!

* **الولد الشامي**: قصة فتى من دمشق، تجسد على نطاق الواقع العملي، حديث رسول الله ﷺ:

**( من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه)**

٦ ـ **مهد البطولات** : يروي قصتين يفخر بهما التاريخ. .

* إحداهما دارت حوادثها أثناء صراع أمتنا مع الرومان.
* والثانية جرت وقائعها على هضاب الجولان خلال حرب رمضان.

٧ ـ **عدل أم جور**: يعمل على إحياء بطلين من أبطالنا العظام، ليكونا ماثلين في الأذهان، يتحركان في خاطر كل إنسان:

* **ما فوق العدل**: وهي تروي قصة سمو الإنسان فوق الحق. . قصة «**فيروز الديلمي**» رضي الله عنه الذي قال عنه رسول الله ﷺ:

**(رجل مبارك، من أهل بيت مباركين).**

* **عدل أم جور**: قصة العدل العمري ومن سار على دربه في تحميل نفسه فوق طاقتها لينجو بين يدي الله. . قصة «سعيد بن عامر الحذيمي» رضي الله عنه، الذي لم يُعرف فضله على حقيقته

إلا عنـــدما شكاه بعض من أهل حمص الى عمر بن الخطاب.

٨ ـ **وفاء**: يروي لنا قصص أمجاد أمتنا فيما تمسكت به من أخلاق كريمة جعلتها في ذروة المجد:

* **وفـــاء**: تروي لنا قصة «إبراهيم بن المهدي» عم الخليفة «المأمون»

* **الأكثر وفاء**: تروي لنا قصة «العباس» صاحب الشرطة مع من كان قد أسدى إليه يداً.

* **بهرام المجوسي**: تروي لنا انتقال «بهرام» من المجوسية إلى الإسلام، تماماً كما أخبر نبينا محمد ﷺ عبد الله بن المبارك في المنام.

٩ ـ **كلمة حـــق**: يروي لنا قصصاً يحق لأمتنا أن تتيه فخراً بها:

* **كلمة حق**: قصة الشيخ الخياط الذي لم يأل جهداً في إنكار المنكر.

* **عقد اللؤلؤ**: قصة العقاب الذي ينزل بمن خان الأمانة.

* **قبلة في الجبين**: قصة «عبد الله بن حذافة السهمي» عندما كان أسيراً بين يدي «قيصر الروم» في حين أن الأسر الحقيقي كان لقيصر والآسر في ذلك هو من في يديه القيود «عبدالله بن حذافة السهمي».

**هل قرأت للمؤلف سلسلة «شعب الإيمان»؟**

السلسلة التي تعمل على توضيح بنود الإيمان واحداً بعد الآخر. . وكان أولها في كتاب:

**«الإيمان بالله».**

ويلي ذلك إن شاء الله.

«الإيمان بالرسل».

«الإيمان باليوم الآخر».

**هل اقتنيت نسخة من «تفسير وبيان»؟؟**

- إنه تفسير موجز مفيد، على هامش كتاب الله الكريم، بالرسم العثماني. وقد تم طبعه وإخراجه بشكل أنيق يسهل معه مراجعة المعنى المقصود.
- فيه أحاديث نبوية منتقاة تناسب الآيات.
- مذيل بكتاب أسباب النزول للإمام السيوطي.
- حجمه (جوامعي) يسهل المطالعة ويريح البصر.

**وهل اقتنيت نسخة من «مفردات القرآن»؟؟**

● إنه تفسير موجز مفيد، على هامش مصحف حفاظ بالرسم الإملائي، يساعد الحافظ على ترسيخ حفظه، كما يسهل عليه الرجوع الى المعنى المقصود. وقد تم طبعه وإخراجه بشكل أنيق.

● فيه أحاديث نبوية منتقاة تناسب الآيات.

● مذيل بكتاب أسباب النزول للإمام السيوطي.

● تم إخراجه في حجمين:

ـ صغير بحجم الكف: يسهل حمله في الحل والترحال.

ـ وسط بحجم الربع: يرتاح إليه الإنسان في المنزل والمكتبة.

تطلب جميعها من:

دار الرشيد دمشق ـ حلبوني - ص.ب ٢٤١٣

بيروت ـ عائشة بكار ـ ص.ب ٦٣٣٤ / ١١٣.